نجـدة

إذا[1] قويت الوزارات ، آثرت الصراحة والحزم فى القول والعمل . وإذا ضعفت الوزارات ، لجأت إلى الحيلة والالتواء فيما تعمل أو تقول . ويظهر أن وزارتنا قوية ، أشد القوة ، عزيزة أشد العزة ، ولكن قوتها تسمى ضعفا فى غير مصر ، وصراحتها تسمى التواء ، وحزمها يسمى حيلة ومداورة . وقد قلنا غير مرة إن للأمور العامة وضعين مختلفين ، أحدهما هذا الوضع القديم المألوف الذى تسمى فيه الأشياء بأسمائها ، هو هذا الذى نشهده فى بلاد الأرض كلها ، والآخر هذا الوضع البديع الشاذ الذى تسمى فيه الأشياء بنقائضها ، وهو الذى نشهده فى بلدنا السعيد . فنحن أحرار ولكننا لا نستطيع أن نقول ولا أن ننتقل ولا أن يلقى بعضنا بعضا ، ولا أن يجتمع بعضنا إلى بعض فى حفل عام أو خاص إلا إذا أذنت الوزارة ورضيت .

والوزارة تأذن وترضى ولكن لأصدقائها وأنصارها . فأما خصومها فذلك شىء ليس لهم أن يستمتعوا به أو يفكروا فيه . ونحن

---

(١) ٢٩ - ٨ - ١٩٣٣

آمنون ولكن جرائم القتل والشروع فى القتل يذاع بعضها كل يوم ، فإذا هو مروع مخيف أشبه بما تشتمل عليه بعض البلاغات الرسمية حين تصور خسائر الأعداء من القتلى والجرحى فى بعض المواقع الحربية المنظمة . فقد كانت خسائر مصر يوم كذا خمسة عشر أو ستة عشر أو أربعة عشر ، منهم القتيل ومنهم الجريح المشرف على الموت ، ومنهم الجريح الذى يرجىَ له الشفاء . ولا تذكر السرقات ، ولا تذكر خطف الأطفال ، ولا تذكر الاعتداء على الزرع .

فكل ذلك شىء لم يبق له خطر . ونحن موسرون ولكن امرأة تكلف من يعرض ابنتها للبيع ، ورجلا يعجز عن أن يعول أهله وفيهم زوجته وأطفاله فيصب عليهم الزيت ويشعل فيهم النار . ونحن مدبرون ولكن الدول الأجنبية تأبى أن تجيبنا إلى فرض الضرائب على رعاياها ، لأنها ترى من إسرافنا وتبذيرنا وإلقائنا للمال باليمين والشمال ما يقنعها بأننا أغنياء ، فلا ينبغى أن نشق على سادتنا الأجانب بفرض الضرائب عليهم والتسوية بينهم وبين عبيدهم المصريين .

ونحن أعزة فى بلادنا ، ولكن طائفة من الأجانب يعتدون على ديننا وأخلاقنا وأعراضنا سرا وجهرا ، فإذا حاولنا أن نردهم عن ذلك أو نحول بينهم وبينه قامت من دونهم قوى خفية أخرى ظاهرة فردتنا نحن وصدتنا ، وقالت إياكم وفرض الرقابة على هؤلاء الناس حتى تنظم لكم هذه الرقابة تنظيما برأى الإنجليز وبعد استئذان المبشرين .

وعلى هذا النحو تجرى أمورنا كلها معكوسة مقلوبة ، والناس عنها راضون ، وإليها مطمئنون . ومنهم من يفاخر بها ويتخذ منها الأدلة

الواضحة على هذا الشأو البعيد الذى قطعناه فى سبيل الحرية والاستقلال ، وعلى هذا المنزل الرفيع الذى نزلناه من التقدم والرقى حتى كدنا نبلغ الكمال . ونحن بالغوه من غير شك فى أمد قريب جدا متى فرغ رئيس الوزراء من الاصطياف والاستشفاء . فليس غريبا إذن أن تكون وزارتنا قوية ، وإن سمى الناس فى غير مصر قوتها ضعفا ، وأن تكون وزارتنا صريحة حازمة وإن سمى الناس فى غير مصر صراحتها التواء ، وحزمها ضعفا واستسلاما .

والغريب أن وزارتنا لم تكتف بأن تكون وحدها قوية صريحة حازمة على هذا النحو المصرى الخاص الذى استحدثته مصر فى ظل رئيس الوزراء ، بل أخذت تكوِّن لنفسها تلاميذ فى هذه القوة البديعة ، وفى هذه الصراحة الطريفة ، وفى هذا الحزم الغريب ، وأى تلاميذ ؟ تلاميذ لم يحلم بتكوينهم موسولينى ، ولم يفكر فى تكوينهم هتلر . وما ينبغى لهما أن يحلما بذلك أو يفكرا فيه ، فإن الله لم يمنحهما القدرة على إحداث المعجزات . هما قادران على أن يعلما الناس . أما وزارتنا فقادرة على أن تعلم الزمان والظروف والأحداث . وإذا أصبح الزمان تلميذا لوزارة من الوزارات ، وإذا حرصت الظروف والأحداث على أن تقلد وزارة من الوزارات وتتلقى عنها الدروس ، فليس من شك فى أن هذه الوزارة هى آية الآيات ، ومعجزة المعجزات ، ومصدر العجب الذى لا ينقضى . ويجب أن نكون منصفين وأن نرد الحق إلى أهله ، فإن هذه البراعة لم تقدر لرئيس الوزراء على كفايته النادرة ونبوغه الرائع ، ولا لوزير

التقاليد على ذكائه الفذ وفطنته التى ليس لها نظير ، ولا لأحد من زملائهما السابقين واللاحقين ، إنما اختص الله بها واحدا منهم ، جعلها وقفا عليه ، لا يشاركه فيها شريك ، وهو وزير داخليتنا العظيم .

لم يكد يرقى إلى منصبه الفخم حتى استحدث فى المحافظة على الأمن والنظام ، وفى مصادرة الحرية أسلوبا لم يعرفه أحد من قبل ، وهو إلغاء المشكلات ومحو المعضلات حتى لا يتكلف التعب والمشقة فى حلها ، وعلى هذا النحو جعل وزير داخليتنا الخطف فنا من فنون الحكم وأسلوبا من أساليب السياسة ، وسبيلا إلى الراحة والاطمئنان .

رأى رئيس الوفد فى قنا وقداحتشد له الناس يحيونه ويكرمونه ويلزمونه ، فهو يكره منهم ذلك ، وهو يأبى أن يتعب نفسه ويتعب الدولة ويتعب الناس بتفريق هذه الجموع كما ألف الوزراء الذين سبقوه أن يفرقوها ، فيعمد إلى الخطف فيلغى الإشكال ويريح الناس جميعا ويختلس رئيس الوفد اختلاسا ، ويرده إلى القاهرة فى أقصر وقت ممكن ، وفى أسرع قطار ممكن . والزمان يرى ويتعلم ، والظروف تنظر وتستفيد ، والحوادث تشهد وتحاول التقليد . وما علمنا على الزمان غباوة ولا لاحظنا على الظروف بلادة ولا أنكرنا على الحوادث تقصيرا ، فمالها كلها لا تنتفع بهذا الأستاذ الفذ ، ولا تستفيد من هذه الدروس البارعة ؟ ومالها لا تتعلم الخطف ولا تتخذه وسيلة لإزالة المشكلات وإلغاء المعضلات فتريح نفسها ،

وتريح أصدقاءها أيضا ، وأصدقاؤها هم الوزراء . ودعائم الحكم فى مصر ، قد تم بينها وبينهم عهد للتعاون والتظاهر حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا

وقد عرضت فى هذه الأيام مشكلة عنيفة ، ومعضلة دقيقة ، اختلط فيها الدين بالسياسة ، واصطدمت فيها المنفعة بالقانون ، وظلت تتعقد حتى لم يبق إلى حلها من سبيل ، وهى مسألة نظلة غنيم . أحكام قضائية شرعية واجبة التنفيذ ، وحكم من المجلس الإنجيلى يراد له التنفيذ ، وتنصر بعد إسلام ، ثم إسلام بعد تنصر ، ثم تنصر بعد إسلام ، واتصال بالمبشرين ، واتصال بالمصريين ، واضطراب من الشمال ، واضطراب من اليمين ، ونوائب تنجم من الأرض ، وأخرى تهبط من السماء . وموقف لا خلاص منه ولا محيد عنه إن رضى القانون غضب الأجانب ، وإن رضى الأجانب غضب القانون . إن رضى القانون رضى المصريون وعبس الإنجليز ، وإن رضى الأجانب غضب القانون وابتسم الإنجليز . فحدثنى أين هى الوزارة التى تستطيع أن تواجه هذا الموقف المعقد بشىء إلا بالإلغاء . ولكن وزارتنا أحرص على القانون والنظام واحترام الأحكام من أن تتردد أو تضعف فهى إذن مذعنة لحكم القضاء ، منفذة لأمر النائب العام إلا أن يتيح الله لها فرجا من حرج ، وسعة من ضيق ، وهنا ينفع الصديق . وأى صديق يشبه الزمان ؟ وأى صديق يشبه الظروف والأحداث ؟ وأى صديق أنفع وأجدى من صديقك الذى تعلم عليك فاستمع إليك وتخرج من مدرستك ؟

هنالك أقبل الزمان يسعى ماكرا ومن حوله الظروف والأحداث قد اتخذت صورا مختلفة ، وأشكالا متباينة ، منها ما يطير فى الهواء ، ومنها ما يمشى على اثنتين ومنها ما يمشى على أربع ، ومنها ما يزحف على الأرض زحفا . فلما وصل هذا الجيش الغريب من الأصدقاء والتلاميذ إلى نظلة غنيم خطفها ، وعصف بها عصفا ، وحذفها من مصر حذفا . وهمّ وزير الداخلية أن ينفذ الأحكام ويرضى النائب العام فنظر ثم نظر فلم يجد لنظلة غنيم فى مصر حقيقة ولا صورة ، ولا عينا ولا أثرا ، ولا طعما ولا ريحا . فأرسل أعوان الأمن وجنود النظام يطوفون فى الأرض ويتحسسون فى الأقاليم ، ينظرون إلى فوق وينظرون إلى تحت ويديرون أبصارهم ورءوسهم فلا يجدون شيئا ، ولا يحسون شيئا . فويل لنظلة غنيم وزوجها يوم تصل إليهما يد الوزارة ، ويظلهما سلطان الوزارة . يومئذ يكون التفريق وأى تفريق . ويومئذ يكون الضم وأى ضم . ولكن لننتظر فإن عفريتا من الجن قد أخفى هذين الشخصين الآن فإذا ظهرا ــ ولا بد أن يظهرا ــ فستنفذ الأحكام ويرضى النائب العام ويحترم القانون والنظام ويطمئن حماة الإسلام . وإلى أن يأذن الله بتحقيق هذا كله يحسن الصبر والانتظار ، وقد ضمن الله أجزل الثواب للذين يعرفون كيف يصبرون ويصابرون ، ويتجنبون العجلة التى هى من جند الشيطان .